# المحاضرة الخامسة

## *نظريات الرواية*

### رابعا : نظرية"باختين"

*كيف فسر "باختين" نشأة الرواية؟*

اذا كانت الرواية ملحمة بورجوازية عند"جورج لوكاتش" و "جولدمان" ومقابلة للملحمة عند "هيجل"،فان الرواية عند "باختين" ذات أصول شعبية تتمثل في الحوارات السقراطية والروح الكرنفالية و الهجاءات ،ومعنى هذا أن الرواية تفرعت عن أجناس شعبية سفلى تحيل على الطبقة الاجتماعية العامة.

بمعنى أنه اذا كانت الملحمة باعتبارها أدبا جادا وراء نشأة الرواية عند الآخرين فان الأدب المضحك و الساخر كان وراء نشأة الرواية عند "باختين".

يذهب "باختين" الى أن نشأة الرواية تعود الى أصول ثلاثة : الحوار السقراطي ،الهجاء المنيبي ،و الكرنفال الاحتفالي الجماهيري ،و تشترك هذه الأجناس كلها في المحاكاة ، الضحك ،السخرية ،الهزل، الشعبية، الحوارية.

ومن هنا كانت نشأة الرواية نشأة شعبية عادية كما يدل على ذالك الحوار السقراطي والهجاء المنيبي و الكرنفال الشعبي الجماهيري.

يرى "باختين" هذا في مقابل النظريات الأخرى ويؤكد أن الرواية جنس سفلي نابع من الأجناس الأدبية الدنيا وهي تعبر عن الأوساط الشعبية و الفيئات العمالية الكادحة ،و يرى في الوقت ذاته أن الرواية هي :

التنوع الاجتماعي للغات و أحيانا اللغات و الأصوات الفردية تنوعا منظما أدبيا ،أي أن الرواية تستند الى تعدد الملفوظات الحوارية و يعني هذا أن "باختين" يفضل الرواية على الملحمة لطابعها التعددي اللفظي و الاجتماعي "البوليفوني" الذي يتمظهر في تعدد أساليبها ولغاتها ولهجاتها وخطاباتها و منظوراتها ،بينما الملحمة تستند الى منولوجية رتيبة لوجود أ حادية الايقاع و الأسلوب والتخاطب.

اذن ثارت نظرية "باختين" على النظرية الهيجلية في تعليل نشأة الرواية كما انتقدت التأويل الماركسي الذي يفسر ظهورها تفسيرا طبقيا (اي بوصفها من انتاج الطبقة البورجوازية).

وهنا تخلى "باختين" عن الربط المألوف بين الرواية والطبقة البورجوازية المعتمدة على ابراز الفردية و حاول كما أسلفنا أن يجد لها جذورا نمت في أحضان الثقافة الشعبية (خاصة طقوس الكرنفال) و حاول أن يجد بعض مكوناتها في النصوص الاغريقية القديمة ونصوص القرون الوسطى.

يتأسس نقده اذن على فكرة محورية وهي رفض ربط الرواية بالملحمة أي رفض النظر الى أن الأولى كتطور للثانية.

حيث يعتقد "باختين" أن جوهر الخطأ الذي وقع فيه "هيجل" و الماركسيون "لوكانش" و "جولدمان" من بعده هو عدم ابصار استقلالية الرواية كفن عن الأشكال التعبيرية الأخرى.

ولذا وكرد على التعليل الماركسي والهيجلي انتهى"باختين" الى أن "لا وجود لأي علاقة يعتمد عليها الباحث كركيزة أساسية بين الملحمة والرواية من جهة، ولا بين البورجوازية و الرواية من جهة ثانية"

على ماذا اعتمد في نفي علاقة الملحمة بالرواية ،الدليل الذي قدمه على أن لا وجود لتعالق طبقي يربط بين نشأة الرواية ونشأة الطبقة البورجوازية؟

لنفي علاقة الرواية بالملحمة يقارن بينهما فيصل الى أن :

ـ القراءات الهيجلية لم تنتبه الى أن الملحمة والرواية نوعان أدبيان متباينان و مستقلان عن بعضهما البعض لذا فقد أخطأ "هيجل" حينما نظر الى الملحمة كنوع أصلي والرواية كفرع ناتج عن الأول بفعل تطور الوعي، فإذا كنا لا نستطيع القول أن الكوميديا تطورت عن التراجيديا وهما من النوع الفني ذاته ،فمن الطبيعي ألا نستطيع القول عن نوعين فنيين مختلفين متمايزين أن أحدهما نتج عن الآخر .

اذن فمنطق "باختين" هو الفصل بين الرواية والملحمة فهما نوعان مختلفان مستقلان و لتأكيد الاختلاف بينهما يقول :

أن الرواية تختلف عن الملحمة بمجموعة من السمات الجوهرية منها:

1ـ أن الملحمة نظام تعبيري ثابت لا يتطور بينما الرواية متطورة ومفتوحة على التغير في نظامها وأشكالها التعبيرية ،بمعنى النوع الملحمي نوع يتميز بسمات قارة ثابتة بينما الرواية نوع فني جديد من سماته الجوهرية أنه يتغير ويتشكل باستمرار،فا الرواية يقول "باختين" "هي الجنس الذي في صيرورة و ما يزال غير مكتمل".... وهي تعكس بعمق وجوهرية و بسرعة أكبر تطور الواقع نفسه.

2ـ تتميز الملحمة بأحادية صورة العالم داخلها ،بينما الرواية تحمل تعددا في صور العالم ، ويوضح الفكرة فيقول ان النظر الى وجهات نظر شخصيات كل من الملحمة والرواية تؤكد أن صورة العالم عند كل شخصية من شخصيات الملحمة هي صورة واحدة فنظرة "أندروماك" عن العالم لا تختلف عن صورة زوجها "هيكتور" ولا عن صورة غريمه "أخيل" ،بينما الرواية تختلف صورة العالم داخلها اختلافات جوهرية تبعا لوجهة نظر شخصياتها.

3ـ الشخصية في الرواية تتميز بحراك وتغير ،بينما الملحمة تبدأ وتنتهي دون تحول أو تغير في شخصياتها فالبطل في "الالياذة" هو ذاته من بداية الملحمة حتى نهايتها حيث لا نشعر أن تغيرا لحق به ،فهو دائما بذكائه وحيله ودهائه أما في الرواية فالأمر مختلف كل الاختلاف فلا تنتهي الشخصية مثلما بدأت فعالم الشخصية في الرواية متغير حيث تنمو وتتطور بتطور الأحداث .

أما عن ربط نشأتها باالبورجوازية فيقدم الدليل بناء على ملاحظته نوع اللغة والقيم الموجودة في النص الروائي ،فيرى "باختين"أن البدايات الأولى للرواية ترجع الى تبدل لغة الخطاب فإرهاصاتها بدأت عندما أخذت اللغات الشعبية الشفهية المحكية الاقليمية تستقل عن اللغة

الكلاسيكية اليونانية ،وهذا أهم اختلاف بين الملحمة والرواية وبالتالي عن البورجوازية ،فلغة الرواية ليست رفيعة المستوى على غرار لغة الملحمة.

كما أنها من جهة أخرى ليست من صنع البورجوازية بل هي نتيجة اسهام الطبقات السفلى والفئات القابعة في قاع المجتمع.

وبناء على هذه النظرة ينزل "باختين" الرواية الى ما هو أسفل من الطبقة البورجوازية فهو يرى أن الرواية ظهرت بظهور الشخصيات التي نشأت في قاع المجتمع أو شخصيات الطبقة الوسطى وهذه شخصيات ليست بورجوازية عموما وان كنا نجد بعض الشخصيات البورجوازية التي نشأت في القاع.

وبذالك ينزع عن البورجوازية الفضل في انتاج هذا النوع الفني ،ويؤكد ذالك بأن النظر الى نوعية الشخصيات المتداولة في المتن الروائي الحديث تنتمي الى الطبقات الشعبية فالمعتوه أو المجنون و المتشرد و اللص و المهرج..... هذه الشخصيات الانسانية ظهرت من الطبقات الشعبية ،فشخصية البورجوازي كما يلاحظ "باختين" ليست محورية ولا حاضرة أكثر من غيرها بل قد لا نلاحظها أحيانا فيما شخصيات أسفل المجتمع هي الأكثر ظهورا وبروزا ، فحتى على مستوى الارهاصات الأولى يلاحظ "باختين" تعدد الأصوات داخل المتن الروائي مثل رواية "دون كيشوت" ل "سرفانتس" الذي يراها تحقق كل الامكانيات الأدبية للخطاب الروائي ذي اللغات المتعددة والحوار الداخلي .

مفهوم الفلكلور (الكرنفال) : انه مفهوم أساسي في نظرة "باختين" للرواية انه الشكل التعبيري الذي يبين بوضوح تعدد الأصوات الاجتماعية و خاصة الصوت الشعبي المعبر عن قاع المجتمع .

درس رواية "رابليه" "غارغانتوا وبنتاغرويل" و حاول أن يستخرج دلالة توظيف الفولكلور في الرواية و قد أكد أن الفولكلور مادة اساسية في الرواية الحديثة هذا الفولكلور الذي لا تتعاطاه الطبقة البورجوازية ذات التقاليد الخاصة فهو يلاحظ أن لغة الرواية تتعدد بتعدد الشخصيات و تعدد انتماؤها الى قاع المجتمع فتظهر اللغة الشعبية بكل ما تشتمل عليه من شتائم و تلفظات جنسية ساخرة ..... انها لغة جديدة خرجت من اسفل المجتمع و هي لغة مغايرة للغة الطبقة البورجوازية ولذا يستبعد ربط الرواية بهذه الطبقة.

اذن أقام "هيجل" تعالقا أساسيا بين الملحمة والرواية و أسس عليه تنظيره ،وقد ظل هذا التفسير حاضرا في نظريتي "لوكاتش" و "جولدمان" و انتقد "باختين" هذا التفسير ولكن نقده ، فكل هذه النظريات على تعددها هذا لا يعني أن تفسيره كان حاسما لمسألة نشأة الرواية لا تحسم الاشكال بل تزيده غموضا بسبب اشتداد جدلها.